جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية

كلية أصول الدين

الملتقى الوطني حول: الفكر التربوي بين التراث الكلامي والصوفي..... 10 جانفي 2022م

الفكر التربوي عند ابن حزم:

د/بن عباس عبد المالك

تمهيد: تحدث ابن حزم عن مصادر المعرفة في مختلف مصنفاته الكلامية والأصولية والفلسفية، كما تطرق إلى طرق اكتسابها، والتي تدخل في إطار نظرية المعرفة، ونظرا لارتباط التحصيل العلمي مع التكوين التربوي فقد اعتنى فقيه قرطبة بهذه الناحية وأنتج فكرا تربويا من خلال تحصيله العلمي تجاربه مما الخاصة يترجم عن مدى تقدم الفكر التربوي بالأندلس، واهتمامنا بابن حزم ينبع من تخصصنا في فكره العقدي والمنطقي، فهو شخصية موسوعية لا تمل من أرائه ونظراته،وفي هذا البحث المتواضع رغبنا أن نعرض بعض أرائه بمنهج وصفي حتى تعم الفائدة.

أولا: طرق اكتساب المعرفة:

هناك خلاف كبير بين المذهب العقلي الذي يرى أن مصدر المعرفة الأول هو العقل، بينما يرى المذهب التجريبي أن مصدر المعرفة هي التجربة ودون الدخول في التفاصيل أردنا معرفة وجهة نظر ابن حزم في هذه المسألة، وكيف عرضها من خلال كتابه الفصل في مبحث باب مختصر جامع ماهية البراهين الجامعة الموصلة للمعرفة"

يتحدث ابن حزم عن اختلاف العلماء حول طبيعة المعرفة إن كانت فطرية أم مكتسبة، فيذكر أن الإنسان يخرج إلى هذا العالم ونفسه قد ذهب ذكرها جملة عند من يقول أنها كانت ذاكرة، ومنهم من يقول أنه لا ذكر لها.

وبهذا الصدد يذهب ابن حزم إلى أن الطفل حين ولادته لا ذكر له ولا تمييز إلا ما لسائر الحيوان من الحس والحركة الإرادية، فترى الطفل يقبض رجليه ويمدهما ويقلب أعضاءه حسب طاقته يحس بالألم إذا تعرض للبرد والحر والجوع والضرب والقرص فهو يمتلك الإدراكات الحسية " وله سوى ذلك مما يشاركه فيه الحيوان والنوامي مما ليس حيوانا من طلب الغذاء لبقاء جسمه على ما هو عليه ولنمائه فيأخذ الثدي ويميزه بطبعه من سائر الأعضاء بفمه دون سائر أعضائه كما تأخذ عروق الشجر والنبات رطوبات الأرض والماء لبقاء أجسامها على ما هي عليه ولنمائها" [1] ومصدر المعرفة عند الطفل في هذه المرحلة كما يراها ابن حزم هي الغريزة والإلهام الذي يعرفه بقوله:" الإلهام علم يقع في النفوس بلا دليل ولا استدلال ولا إقناع ولا تقليد وهو لا يكون إلا : إما فعل الطبيعة من الحي غير الناطق ومن بعض الناطقين أيضا كنسج العنكبوت وبناء النحل وما أشبه ذلك وأخذ الصبي الثدي وما أشبه ذلك: أو أول معرفة النفس قبل أوان استدلالها لنا كعلمنا أن الكل أكثر من الجزء وهو فيما عدا هذين الوجهين باطل". [2]

أما إذا قويت النفس فإنها تصل إلى مرحلة التمييز بالحواس الخمس حيث يوظف الطفل إدراكاته الحسية ويحدث عنده التمييز، وفي هذه المرحلة يستقل بنفسه ويتميز عن بقية الحيوان ، فيدرك أن بحاسة الشم أن الرائحة الطيبة مقبولة من طبعها والرائحة الرديئة منافرة لطبعها، ويدرك بحاسة البصر اختلاف الألوان من الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض، وبحاسة اللمس يكتشف الفروق بين الخشن والأملس والحار والبارد وبالذوق يميز بين الحلو والحامض والمر والمالح وبالسمع يميز بين الأصوات الحادة والغليظة والمطربة والمزعجة.فهذه إدراكات لحواسها الخمس.

تنتقل بعد ذلك إلى مرحلة الإدراك السادس وهو العلم بالبديهيات، ويظهر ذلك عندما يميز بين الأقل والأكثر أو بين الجزء والكل، فإن الصبي الصغير في أول تمييزه إذا أعطيته تمرتين بكى وإذا زدته ثالثة سر وفرح وهذا لعلمه بأن الكل أكثر من الجزء حتى ولو كان لا يدرك الحساب والأعداد، وكذلك علمه بأن المتضادين لا يجتمعان فإنك إذا وقفته قسرا بكى ونزع إلى القعود علما منه بأنه لا يكون واقفا قاعدا معا، ومن ذلك علمه بأن جسمه لا يشغل مكانين فإذا أراد الذهاب إلى مكان وأمسكته قسرا وبكى لعلمه أن

[1] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الفكر1980م، ج1ص 5

[2] ابن حزم، الاحكام في أصول الأحكام، تحقيق احسان عباس، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط ثانية سنة 1983/..ج1 ص 40.

الجسم الواحد لا يكون في مكانين ..وعلمه بأنه لا يكون فعل إلا لفاعل فانه إذا رأى شيئا قال من عمل هذا ولا يقنع بأنه عمل دون وجود عامل أو فعل دون وجود الفاعل...[3]

.وبهذا الطريقة يستمر ابن حزم في تقديم نظراته حول اكتساب المعارف بدءا من الردود الفطرية والإدراكات الحسية والبديهيات، فهذه المقدمات لا خلاف حولها فهي تشكل أرضية أوائل العقل يقول ابن حزم:" وهذا أمر يستوي في الإقرار به كبار جميع بني آدم وصغارهم في أقطار الأرض إلا من غالط حسه وكابر عقله فيلحق بالمجانين لأن الاستدلال على شيء لا يكون إلا في زمان ولابد ضرورة، يعلم ذلك بأول العقل لأنه قد علم بضرورة العقل أنه لا يكون شيء مما في العالم إلا في وقت وليس بين أول أوقات تمييز النفس في هذا العالم وبين إدراكاتها لكل ما ذكرنا مهلة البتة، لا دقيقة ولا جليلة ولا سبيل على ذلك ، فصح أنها ضرورات أوقعها الله في النفس ولا سبيل إلى الاستدلال البتة إلا من هذه المقدمات ولا يصح شيء إلا بالرد إليها فما شهدت له مقدمة من هذه المقدمات بالصحة فهو صحيح متيقن وما لم تشهد له بالصحة فهو باطل ساقط."[4]

ثانيا: مراتب العلوم:

يتحدث ابن حزم في كتابه "مراتب العلوم " عن المرحلة الإعدادية التي يتلقى فيها الأطفال دروسهم الأولى، والتي حددها بخمس سنوات أو نحوها، وهي تكاد تكون متوافقة مع التشريع المدرسي المعاصر الذي حدد مرحلة التحضيري للطفل في سن الخامسة ليلتحق بالسنة الأولى في سن السادسة وبهذا الصدد يقول ابن حزم :" فالواجب على من ساس صغار ولدانه وغيرهم أن يبدأ منذ أول اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به، وقوتهم على رجع الجواب ، وذلك يكون في خمس سنين أو نحوها من مولد الصبي ، فيسلمهم إلى مِدرب في تعليم الخط وتأليف الكلمات من الحروف، فإذا درب الغلام في ذلك درس وقرأ"[5]

1 – تعليم الكتابة: اشترط ابن حزم عدة شروط لتعلم الكتابة من بينها أن يكون الخط واضحا قائم الحروف ، والهجاء سليما صحيحا، أما المبالغة في تحسين الخط والعناية به فتزيد لا مبرر له، يقول ابن

[3] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ، ج1ص 5.
[4] ابن حزم، المصدر نفسه، ج1 ص 6-7.
[5] ابن حزم، مراتب العلوم ، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق د إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007.المجلد 2 ص 65.

حزم:" والحدّ الذي لا ينبغي أن يقتصر المعلم على أقلّ منه أن يكون الخط قائم الحروف، بينا صحيح التأليف الذي هو الهجاء، فإن الخط إن لم يكن هكذا لم يقرأ إلا بتعب شديد".[6]

2 – تعلم القراءة: يوصي ابن حزم على تعليم الأطفال القراءة بمهارة مع حفظ القرآن، وبهذا الصدد يقول:" وحدّ تعلم القراءة أن يمهر في القراءة لكل كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها صقعه، وينفذ فيه، ويحفظ مع ذلك القرآن، فاه يجمع بذلك وجوها كثيرة عظيمة ، أحدها التدرب في القراءة له وتمرين اللسان على تلاوته فيحصل من ذلك حدا، إلى ما يحصل عنده من عهوده الفاضلة ووصاياه الكريمة، ليجدها عدة عنده مدخرة لديه قبل حاجته إليها يوم حاجته إليها".[7]

لقد حقق المنهج التربوي بالأندلس نجاحات مبهرة دفعتها إلى أن تصبح قرطبة منافسة لبغداد، وذلك بفضل الجهود التي رسم خططها العلماء تحت رعاية الأمراء رغبة منهم بالتشبه بأهل العلم.

يقول الدكتور حسان محمد حسان:" ولبعض مفكري الأندلس تجربة خاصة في تعليم القرآن الكريم تختلف عن المشرق، وقد عبر القاضي أبو بكر بن العربي عن ذلك في عدد من مؤلفاته بحيث يبدأ الطفل بتعلم الألفاظ ومعانيها، وأساليب تكوين الجملة، وقواعد اللغة، مع حفظ أشعار العرب وأمثالها، وبذلك تخلو لغته من الأخطاء واللحن، وإذا كان مثل هذا الأمر ليس مهما في عصور الإسلام الأولى، فإن الأمر اختلف بعد ذلك لتعدد الأجناس واللغات، وتداخل الحضارات والتيارات".[8]

وكانت تلاوة القرآن وتكراره في حلقة الذكر وسيلة للتعلم،حيث يعمد معلم القرآن إلى تكليف الأطفال بحفظ سورة معينة بتكرارها عدة مرات في عدة أيام مع متابعة المعلم وتصحيح أخطاء التلاوة تساعد الطفل على تمرين لسانه سواء للتلاوة أو تعلم اللسان العربي خاصة إذا علمنا أن سكان المغرب من البربر أمازيغي اللسان، وهي الطريقة التي طبقت في إفريقيا في جنوب الصحراء وأثبتت نجاحها ، وللأسف تتعرض هذه الطريقة التربوية لهجمة ممنهجة قصد ابعاد جيل عن تعلم القرآن بحجة أنها بدعة في الدين وهم لا يفرقون

---

[6] ابن حزم، رسائل ابن حزم، مرجع سابق، ص 65.

[7] ابن حزم ، مراتب العلوم، ص66.

[8] حسان محمد حسان، ابن حزم الأندلسي، عصره ومنهجه وفكره التربوي، ص 125.

بين المنهج التربوي التعليمي كوسيلة للتعلم والحفظ، وبين استحداث أمر في الدين الذي هو بدعة بلا خلاف.

3 –تعلم النحو واللغة: بعد أن يتعلم الطفل الكتابة والقراءة ويكسب مهارة في التعلم انتقل إلى علم النحو، وهي الخطوة التي يراها ابن حزم ضرورية حتى يفهم الطفل ما يقرأه، يقول ابن حزم:" ومعنى النحو تنقل هجاء اللفظ وتنقل حركاته الذي يدل كل ذلك على اختلاف المعاني كرفع الفاعل ونصب المفعول، وخفض المضاف، وجزم الأمر والنهي....فإن جهل هذا العلم عسر عليه علم ما يقرأ من العلم".[9]

ويوضح ابن حزم أنه لا حاجة للتزيد على المقدار المطلوب إلا لمن كانت له الرغبة في الاشتغال به والتخصص فيه وجعله وسيلة للمعاش. وبهذا الصدد يقول ابن حزم:" وأما التعمق فيه فضول لا منفعة من بها، ومشغلة عن الأوكد...وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة وما المرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط".

ولعل هذا التعمق المبالغ فيه والبعيد عن طريقة المتقدمين ساهم في عزوف الطلبة عن دراسة النحو الذي تحول إلى ألغاز يصعب حلها. يقول الدكتور شوقي ضيف:" لقد أخفقت الطرق التربوية الحديثة في تعليم النحو،بينما نجحت طريقة الأسلاف في تعليمه بواسطة متونه ومختصراته وهي تخلو من كل الطرق الحديثة، ومع ذلك كانت تتمثله الناشئة الأزهرية ولا تجد فيه عسرا ولا مشقة،وكأنما عقوده المتراصة المتناسقة في هذه المتون نثرتها الطرق التربوية الحديثة ، فضاع من التلاميذ سياق النحو ونسقه القديم".[10]

وبخلاف النحو يؤكد ابن حزم على التعمق في دراسة اللغة فكلما توغل المتعلم في دراسة اللغة كلما يسرت عليه المستغلق فيما يقرأ من الكتب.

4 – تعلم الحساب: يرى ابن حزم أنه إذا بلغ المرء من النحو واللغة والحد المطلوب فلينتقل إلى تعلم علم العدد وهو علم الحساب، فليحكم جدول الجمع والطرح والضرب والقسمة، كما يدرس علم الهندسة " وليأخذ طرفا من المساحة ، وليشرف على الأرثماطيقي – وهو علم طبيعة العدد – وليقرأ كتاب أقليدس

[9] ابن حزم، مراتب العلوم، ص66.

[10] شوقي ضيف، معي ، سلسلة كتاب اقرأ ، العدد 466، ص 50 نقلا عن كتاب ابن حزم الأندلسي للدكتور حسان محمد حسان ، ص 129.

قراءة متفهم له، واقف على أغراضه ، عارف بمعانيه، ف انه علم رفيع، به يتوصل إلى معرفة نصبة الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها" [11]. كما يوصي بمطالعة كتاب المجسطي لمعرف الكسوف والأوقات وزيادة الليل والنهار والمد والجزر وهندسة البناء وجلب المياه.

5 – تعلم المنطق: إذا بلغ المرء مستوى معينا من التعلم فعليه بدراسة المنطق يقول ابن حزم:" فإن من سلف من الحكماء – قبل زماننا- جمعوا كتبا ورتّبوا فيها فروق وقوع المسميات تحت الأسماء التي اتفقت جميع الأمم في معانيها ، وان اختلفت في أسمائها التي يقع بها التعبير عنها، إذ الطبيعة واحدة ، والاختيار مختلف شتى، ورتبوا كيف يقوم بيان المعلومات من تراكيب هذه الأسماء، وما يصح من ذلك وما لا يصح، وثقفوا هذه الأمور، فحدّوا في ذلك حدود ورفعوا الإشكال، فنفع الله تعالى بها منفعة عظيمة، وقرّبت بعيدا، وسهلت صعبا، وذللت عزيزا، فمنها كتب أرسطاطاليس الثمانية المجموعة في حدود المنطق".[12]

إن دعوة ابن حزم إلى تعلم علم المنطق واجهت معارضة شرسة من المعارضين في المجتمع الأندلسي، ويظهر ذلك في الحدة التي تبناها ابن حزم في مواجهة خصومه ووصفهم بأقبح الأوصاف، وبهذا الصدد يقول: فإن قال جاهل: فهل تكلم أحد من السّلف الصّالح في هذا؟

قيل له: إن هذا العلم مستقر في نفس كل ذي لبّ، فالذهن الذّكّي واصلّ بما مكنّه الله تعالى فيه من سعة الفهم، إلى فوائد هذا العلم، والجاهل متسكع كالأعمى حتى ينبّه عليه، وهكذا سائر العلوم. فما تكلم أحد من السّلف الصالح رضي الله عنهم في مسائل النّحو، لكن لما فشا جهل النّاس باختلاف الحركات التيّ باختلافها تختلف المعاني في اللغة العربية، وضع العلماء كتب النّحو، فرفعوا إشكالا عظيما، وكان ذلك معينا على الفهم لكلام الله عز وجل وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم وكان من جهل ذلك ناقص الفهم عن ربّه تعالى، فكان هذا من فعل العلماء حسنا وموجبا لهم أجرا." [13] وعلى نفس المنوال يواصل ابن حزم حديثه عن جهود العلماء في وضع مؤلفات وتصانيف في اللغة والفقه وغيرها من العلوم، ولا يصح

---

[11]- ابن حزم، مراتب العلوم، ص69.

[12] ابن حزم، التقريب للحد المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق عبد الحق التركماني،دار ابن حزم، بيروت، ط أولى2007م، ص 316.

[13]ابن حزم، التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالالفاظ العامية والأمثلة الفقهية،تحقيق عبد الحق التركماني، دار ابن حزم، لبنان، ط أولى 2007م، ص 312.

الاعتراض بكون هذه العلوم لم تعرف في زمن السلف الصالح الذي كان في غنى عنها بما أبانهم الله تعالى به من الفضل ومشاهدة النبوة، لكن الذين جاؤا من بعدهم فقراء إلى هذه العلوم.

وهنا نشاهد لحظة تاريخية إذ يعد ابن حزم أول من أدخل المنطق إلى العلوم الشرعية بعد أن ساد الرأي بأن الغزالي هو من أدخل المنطق ، لكن كتاب "التقريب لحد المنطق" يثبت أن الغزالي مسبوق بابن حزم.

6 – تعلم الطبيعيات : بعد تعلم الحساب والمنطق بمعرفة البراهين يأتي دور الطبيعيات كمرحلة يتعلمها الطالب في مساره العلمي يقول ابن حزم:" وينظر في الطبيعيات وعوارض الجو وتركيب العناصر وفي الحيوان والنبات والمعادن، ويقرأ كتب التشريح ليقف على محكم الصنعة وتأثير الصانع وتأليف الأعضاء واختيار المدبر وحكمته وقدرته".[14]، وقد نالت الأندلس شهرة كبيرة في تكوين الأطباء الذين كانوا في خدمة الملوك والأمراء، ونالوا حظوة ومكانة مرموقة غند الحكام وبين طبقات المجتمع.

تحدث بعد ذلك ابن حزم عن دراسة التاريخ وبين أهميته وعلم الشريعة وبين منفعتها وأعتبرها أعظم منفعة .

ثالثا: أدب العالم والمتعلم:

1 – نصيحة لطلبة العلم : يوجه ابن حزم نصائحه التربوية لطلبة العلم في صورة وصفة دواء ، وهو على غير عادة المربين حيث يطرح الداء الذي يعاني منه طالب العلم ليعقبها بوصفة الدواء، فبدل أن يتوجه إلى طالب العلم ويحثه على الالتزام بأدب طلب العلم تجده يحذره من الأمراض النفسية التي تمنع الطالب على التحصيل العلمي، ولا عجب فان كتابه "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" لم يجعله عرضا للقيم الأخلاقية بقدر ما جعله وصفات طبية في مدواة النفوس.

يقول ابن حزم:" إذا حضرت مجلس العلم، فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علما وأجرا، لا حضور مستغن بما عندك، طالبا عثرة تشيعها، أو غريبة تشنّعها، فهذه أفعال الأرذال الذين لا يفلحون في العلم أبدا"[15].

[14] ابن حزم، مراتب العلوم، ص 72.

[15] ابن حزم، ، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، شركة الشهاب، الجزائر، د ت..ص 92.

إذن على الطالب أن يكون هدفه من حضور مجالس العلم طمعا في الزيادة لا للترصد وصيد عثرات شيخه وزملائه، وكم صادفنا هذا النوع من الطلبة الذين همهم هو وضع الكمائن ونشر الإشاعة انتصارا لنفسه أو تمكينا لمذهبه. اسمع إلى ما يقوله ابن حزم وقد خبر هذا النوع من الطلبة، وبهذا الصدد يقول ابن حزم:" إذا حضرتها كما ذكرنا، فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها، وهي: إما أن تسكت سكوت الجهال، فتحصل على أجر النية في المشاهدة، وعلى الثناء عليك بقلة الفضول، وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس.فإن لم تفعل ذلك، فاسأل سؤال المتعلم، فتحصل على هذه الأربع محاسن، وعلى خامسة، وهي استزادة العلم"[16]. إن التزم الطالب بهذه النصائح فإن ثمرات العلم سرعان ما تظهر في تحصيله العلمي وسلوكه الخلقي.

2 – صفة سؤال المتعلم : ومع مداواة النفوس التي كلف ابن حزم بتوضيحها يستمر فقيه قرطبة بتوجيه نصائحه التربوية لطلبة العلم، وهذه المرة حاول أن يرفع الغطاء عن كيفية طرح السؤال بشروطه العلمية.إذ كثير ما يلجأ الطلبة إلى طرح السؤال للتعجيز أو إثارة الشغب أو لتفويت فرصة إلقاء الدرس، هذه الحيل التي يلجأ إليها الطفيليون على العلم ، لتحقيق أجندة بعيدة عن التربية والتعليم دفعت بابن حزم إلى الكشف عن أساليبها الخسيسة الماكرة

يقول ابن حزم:" وصفة سؤال المتعلم أن تسأل عما لا تدري لا عما تدري، فإن السؤال عما تدريه سخف، وقلة عقل، وشغل لكلامك، وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك،وربما أدّى إلى اكتساب العداوات، وهو –بعد – عين الفضول"[17].

3 – كيفية أن تراجع مراجعة العالم :يعالج ابن حزم مسألة مراجعة العالم، ويبين ما يجب التزامه من آداب حتى يبقى الاحترام بين المجادلين، إذا كانت الحجة معك قوية وناقضة لرأي غيرك فعليك بطرحها بأسلوب مهذب، ولا تلجأ إلى العناد والمكابرة،تريد الظهور والمغالبة، وهذه نصيحة للعالم والمتعلم على حد سواء .

[16] ابن حزم، المصدر نفسه، ص 92.

[17] ابن حزم، المصدر نفه، ص 92.

يقول ابن حزم:" وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بينا، فإن لم يكن ذلك عندك، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة، فأمسك، فإنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر، ولا على تعليم، ولا على تعلّم، بل على الغيظ لك ولخصمك، والعداوة التي ربما أدّت إلى المضرّات. وإياك وسؤال المعنت، ومراجعة المكابر، الذي يطلب الغلبة بغير علم، فهما خلقا سوء، دليلان على قلة الدين، وكثرة الفضول، وضعف العقل، وقوة السخف".[18]

4 – كيفية التعامل مع السؤال الكتابي أو ردودك على محتوى كتاب:

يوجه ابن حزم نصائحه من عيادته التربوية في مداواة النفوس، حيث كثيرا ما تواجهنا آراء لا تتفق مع تكويننا أومع مساراتنا العلمية، فنهاجمها بسهام من النقد والاعتراض ، ونرفضها دون حجة أو دليل، مع أن المنهج السليم هو التزام العدل والإنصاف في البحث العلمي فإن كانت أراء صحيحة فهي زيادة في العلم، وإن كانت خطأ حذّرنا منها وبيّنا الصحيح منها. وبهذا الصدد يقول ابن حزم:" إذا ورد عليك خطاب بلسان، أو هجمت على كلام في كتاب، فإياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة، قبل أن تتبين بطلانه ببرهان قاطع. وأيضا، فلا تقبل عليه إقبال المصدّق به، المستحسن إياه، قبل علمك بصحته ببرهان قاطع، فتظلم كلا الوجهين نفسك، وتبعد عن إدراك الحقيقة، ولكن أقبل عليه إقبال سالم القلب عن النزاع عنه، والمنزوع عنه، إقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى، فالتزيد به علما، وقبوله إن كان حسنا، أو رده إن كان خطأ، فمضمون لك — إن فعلت ذلك — الأجر الجزيل، والحمد الكثير، والفضل العميم".[19]

5 – اعتراف المربي بعيوب نفسه وعلاجها : أيسر وسيلة للنجاح والقضاء على الأمراض النفسية التي تواجه المربي هي أن يواجه أمراضه النفسية، وعيوبه الخلقية بالوصفة الطبية التي وصفتها الأنبياء والحكماء وأهل الصلاح، وأول خطوة يقوم بها من يرغب في علاج نفسه أن يعترف بضعفه فإذا نجح في وصف الداء أمكنه النجاح في وضع الدواء.

[18] ابن حزم، المصدر نفسه،ص 92.

[19] ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 93-94.

يقول ابن حزم:" كانت فيّ عيوب، فلم أزل بالريادة، واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق، في آداب النفس، أعاني مداواتها، حتى أعان الله عّ وجلّ على أكثر ذل بتوفيقه ومنّه، وتمام العدل، ورياض النفس، والصرف بأزمّة الحقائق هو الإقرار بها، ليتعظ بذلك متعظ يوما إن شاء الله ، فمنها كلف في الرضاء، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة".[20]

6 – ارتباط العلم مع العمل: من الأصول التي جاءت بها الشريعة الإسلامية هي الربط بين العلم والعمل، فكثير من الآيات والأحاديث النبوية تدعوا المسلمين إلى التزام بالعمل وفق الضوابط الشرعية، فالإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، ولا خير في أمة تأخذ العلم وتهمل العمل. يقول ابن حزم:" فرض على الناس تعلم الخير والعمل به، فمن جمع الأمرين فقد استوفى الفضيلتين معا، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم، وأساك في ترك العمل به، فخلط عملا صالحا وآخر سيئا، وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به، وهذا – الذي لا خير فيه – أمثل حالا، وأقل ذما من آخر ينهي عن تعلم الخير، ويصد عنه.[21]

رابعا : مشكلة الهم وكيفية علاجه

1 – طرد الهم هو الشيء المشترك بين الناس : تناول ابن حزم في ثنايا كتبه عدة قيم أخلاقية مبينا أسبابها وطرق معالجتها، وفق ما تمليه دراسته العلمية وتجاربه اليومية وخبراته الاجتماعية، وقد بدا لنا أن الخوض في عدة مواضيع أخلاقية وتربوية لا يمكن حصرها في هذا البحث، فبادرنا إلى ذكر بعضها تبعا لأهميتها، واخترنا موضوع الهم الذي يسبب الإحباط والاكتئاب والذي أصبح مشكلة العصر، فكيف عالج ابن حزم مشكلة الهم ؟

"فمعنى الهم يرادف حالة التوتر التي تنشأ عند الإنسان نتيجة إحساس داخلي أو مثير بيئي بنقص شيء معين له أهمية في حياة الإنسان".[22]

---

[20] ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 33.

[21] ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 94.

[22] عبد البديع الخولي، الفكر التربوي في الأندلس، ص136(نقلا عن حسان محمد حسان، ابن حزم الأندلسي ، عصره ومنهجه وفكره التربوي، ص 113.)

الهم هو شعور يصادفه الإنسان في حياته لإحساسه بأن هناك نقصا يعتريه، ولا يمكن طرد هذا الهم إلا بحضور ما يقابل النقصان أو ما يعوضه ولو بخلاف جنسه، " فإنما طلب المال طلابه، ليطردوا به همّ الفقر عن أنفسهم، وإنما طلب الصوت من طلبه، ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها، وانما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها، وإنما طلب العلم من طلبه، ليطرد به عن نفسه هم الجهل..الخ"[23]

والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة النفس البشرية بين النفس اللوامة والنفس المطمئنة،" ونتيجة أن هناك صراعا داخل النفس بين التمييز والهوى فقد يحدث أحيانا للإنسان ميل ناحية الهوى، وبذلك يتطاحن ويتشاحن، يتصارع ويطمع فيما أيدي الآخرين.. وبذلك تظهر مظاهر الخلق الذميم من جبن وشح، وجور وجهل، وكل ذلك تعبير عن الطمع. أما إذا تغلبت قوى التمييز التي تميز بها الإنسان والجن والملائكة فعندئذ يمد الله عبده بقوة من عنده فيفعل طيبات من الأعمال، وصالح الأفعال"[24].

2 – طرد الهم باتفاق الأمم: الهم مشكلة عامة لا تتعلق بالأفراد فحسب بل هو آفة تعاني منها جميع الأمم، يقول ابن حزم:" فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها– مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء ويعاقبه عالم الحساب — على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه، وكل غرض غيره ففي الناس من لا يستحسنه، إذ في الناس من لا دين له، فلا يعمل للآخرة، وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق، وفي الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت، وفي الناس من لا يريد المال، ويؤثر عدمه على وجوده، ككثير من الأنبياء– عليهم السلام– ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة. " الناس من يؤثر الجهل على العلم كأثر من ترى من العامة وهذه أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها.[25]

الناس بطبعهم تميل إلى ما هو أنفع لهم من حيث المادة، وأسهل عليهم من حيث حصوله، فالعلم طريقه يحتاج إلى جهد وصبر. " وفق ذلك يتضح لنا أن الفلسفة تمد التربية بالأدوات الفنية الفلسفية لأجل تحليل النظريات والقضايا التربوية وتدقيق النظر في معانيها وإصدار الحكم عليها بالصحة والفساد، وهذا ما دفع بالإمام ابن حزم إلى التمعن والتفكير بكل فلسفية وحكمة لإيجاد سبيل إلى طرد الهم، ذلك المرض المزمن

[23] ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 15.
[24] حسان محمد حسان، ابن حزم الأندلسي، عصره ومنهجه وفكره التربوي، ص 114.
[25] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص 14.

الملازم للإنسان بداية من سنّ التكليف إلى أن تفارق روحه جسده، فوجد بأنّ ثمة وسيلة واحدة رآها هي الأفضل والأنبل لطرد شبح الهم عن الإنسان ألا وهي الرجوع إلى الله عز وجل".[26]

طرد الهم هو القاسم المشترك بين الناس، وقد حاولت الأديان والمذاهب الفلسفية باختلاف أصولها أن تجيب عن تساؤلات يطرحها الإنسان وهو في رحلته يبحث عن مصدر الاطمئنان النفسي، وبهذا الصدد يقول ابن حزم:" وليس في العالم – مذ كان إلى أن يتناهى – أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده عن نفسه. فلما استقر في نفسي هذا اعلم الرفيع ، وانكشف لي هذا السر العجب، وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة – على الحقيقة – إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع أنواع الإنسان – الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح – على السعي له ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل- بالعمل للآخرة."[27]

3 – التعلق بالآخرة خير علاج لطرد الهم

تلك هي ثمرة الاجتهاد النابع عن الخبرة والتجربة يقدمها لنا ابن حزم بعد مسيرة طويلة وشاقة عانى منها هذا الفقيه من مؤامرات ودسائس، نتج عنها هموم وأحزان، وهنا لا بد أن يستحضر العاقل أن الإيمان بالآخرة علاج النفس ونهاية الهم، والرجاء في الثواب.

يقول ابن حزم:" ووجدت العمل للآخرة – سالما من كل عيب خالصا من كل كدر – موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة، ووجدت العامل للآخرة – إن امتحن بمكروه في تلك السبيل – لم يهتم بل يسرّ، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد، ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم، إذ ليس مؤاخذا بذلك، فهو غير مؤثر في ما يطلب، ورأيته إن قصد بالأذى سرّ، وان نكبته نكبة سرّ، وان تعب فيما سلك فيه سر، فهو في سرور متصل أبدا، وغيره بخلاف ذلك أبدا، فاعلم أنه مطلوب واحد، وهو العمل للّه تعالى، فما عدا هذا فضلال وسخف."[28] هذا العلاج الذي يقدمه ابن حزم لمن شغل نفسه بطرد الهم هو ثمرة خبراته الميدانية، فمن أراد لذة أو متعة فعليه أن يسعى في

---

[26] آسيا وعيل، نظرية العلم في فلسفة ابن حزم، ص 67.

[27] ابن حزم، الأخلاق والسير، ص 14- 15.

[28] – ابن حزم، الأخلاق والسير، 15-16.

التي تتصف بالبقاء والدوام، وهنا " يجيل ابن حزم نظره في الناس فيجد أنه لا يشغلهم شيء سوى إزالة الهم، كافرهم ومسلمهم، غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، حاكمهم ومحكومهم، وهكذا، ولا يجد لهذا الهم إلا دواء واحدا هو التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة."[29]

على الإنسان العاقل أن يحسن الاختيار، وأن يجاهد نفسه للحصول على تجارة رابحة لن تبور، وأن يرفع همته يلتمس العلا ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان ما تعلق به القلب أغلى من النفس والمال والأولاد، ولا يكون ذلك إلا في ذات الله تعالى وما أوصانا به من الواجبات ومكارم الأخلاق.

يقول ابن حزم :" لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله تعالى — عز وجل — في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى، وفي نصر مظلوم، وباذل نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصى، لا مروءة لمن لا دين له، العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة."[30] هكذا تكون عبارات ابن حزم دررا يستفيد منها كل طالب النجاة، وهي السعادة الأبدية.

4 – معنى الصلاح عند الرجال والنساء: حارب الإسلام ظاهرة الفساد التي تأخذ مستويات متعددة من الطبقة الحاكمة إلى طبقة المترفين نزولا إلى عامة الناس، ثم إلى الأسرة ،فالفساد يأخذ صورا وأشكالا متعددة، ولهذا كانت دعوة الأنبياء إلى الإصلاح في المعتقد والعمل، ومن خلال نظرات ابن حزم حول هذه المشكلة المتفشية في المجتمع رأى أن الناس بحاجة إلى تحديد المصطلح وبيان مفهومه، فلا يمكننا أن نعالج ظاهرة الفساد ونحن لم نضبط بعد ما هو الصلاح حتى نميزه عن غيره، وبهذا الصدد يقول ابن حزم : واني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة، أعني (الصلاح) غلطا بعيدا، والصحيح في حقيقة وتفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت، وان قطعت عنها الذرائع أمسكت، والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط، وإذا جعل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل، والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب، والفاسق من يعاشر أهل النقص، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات، والصالحان من الرجال

[29] محمد عبد الله أبو صعيليك، الإمام ابن حزم الظاهري، إمام أهل الأندلس، دار القلم، دمشق، ط أولى،1995م ص 130.
[30] ابن حزم ، الأخلاق والسير، ص 16.

والنساء كالنار الكامنة في الرماد، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء."[31]

المصادر والمراجع:

1 ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الفكر 1980م،

2 ابن حزم، الاحكام في أصول الأحكام، تحقيق احسان عباس، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط ثانية سنة 1983/..

3 ابن حزم ، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق د إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2007.

4 ابن حزم، مراتب العلوم (ضمن رسائل ابن حزم).

[5] ابن حزم، التقريب للحد المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق عبد الحق التركماني،دار ابن حزم، بيروت، ط أولى2007م،.

[6] ابن حزم، طوق الحمامة،.

[7]ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، شركة الشهاب، الجزائر، د ت..

[8] آسيا وعيل، نظرية العلم في فلسفة ابن حزم، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2018..

[9] محمد عبد الله أبو صعيليك، الإمام ابن حزم الظاهري، إمام أهل الأندلس، دار القلم، دمشق، ط أولى، 1995م.

10حسان محمد حسان، ابن حزم الأندلسي، عصره ومنهجه وفكره التربوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت

[31] ابن حزم، طوق الحمامة، ص 270- 271.

11شوقي ضيف، معي ، سلسلة كتاب اقرأ ، العدد 466، ص 50 نقلا عن كتاب ابن حزم الأندلسي للدكتور حسان محمد حسان